تجليات اللغة في الحضارة والعمران

الأستاذ محمد العثماني الصقلي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق
جامعة الحسن الثاني
المغرب

الملخص:

تهدف هذه الورقات إلى بيان ما للغة من بالغ الأثر على الفكر الجمعي، وتوضح أن الحضارة الإنسانية تمنح في الأساس من اللغة كمشترك إنساني، حيث يبقى الاهتمام باللغة مؤشرًا من مؤشرات الاهتمام بالأمة، فهي معبرة عن الوعي الجماعي لها، وتظل اللغة ذلك المنظار الذي من خلاله يدرك الإنسان عالمه، وهي العامل الحاسم الذي يشكل هوية هذا الإنسان ويضفي على المجتمع طابعه الخاص، إن الكلام أو الخطاب يشكل الحجر الزاوية في بناء الحضارة وإقامة العمران، فاللغة هي وعاء الفكر والإبداع والابتكار، وجسر المعرفة الذي يربط الماضي بالحاضر ويصل الحاضر بالمستقبل.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الحضارة، العمران.

Abstract:

These papers aim at demonstrating the profound impact of language on collective thought, and showing that human civilization is a granted result coming primarily from language as a shared human denominator, where interest in language remains as an indicator of concern about the nation itself. This latter reflects the collective awareness of people about it. Hence, language remains that perspective through which man realizes the existence of his world and surroundings, and it is the decisive factor that forms the identity of this person and gives society its special characteristics. Therefore, speech or discourse is the cornerstone of building a civilization and establishing its urbanization. Moreover, language is the vessel of thought, creativity and innovation, and the bridge of knowledge that connects the past with the present and connects the present with the future.

Keywords: Language; civilization; urbanization

المقدمة:

اتخذ البحث في نشأة اللغة طرائق منهجية متعددة، ووسائل علمية ضحلة لا زالت محمل مراجعة ونظر وتدقيق ويبدو تصور الباحث عن اللغة تصورا أزليا، فاللغة نشأت منذ الأزل وتمتد حتى فناء الكون؛ و يحفل التاريخ بذكر خدع لم تكن غير خدع لغوية؛ ولكنها مرت فأحيت أشخاصا وقتلت آخرين، وكذبا يدفع ثمنها أولئك الذين صدّقوا ما بدا لهم من ظاهر القول... "إن الأمة تفصح عن روحها في الكلمات التي تستعملها"[1]...يقول همبولت[2] : إن "الاختلافات القائمة بين اللغات ليست مجرد اختلافات صوتية؛ بل إنها تنطوي على اختلاف في تفسير العالم وفهمه من قبل المتكلمين بكل لغة"[3]...ويقول بواس "إن البحث اللغوي الخالص جزء من الفحص الدقيق لسيكولوجية شعوب العالم"[4]، " فهي حالة تشبه المصادرة على المطلوب ولعل هذا ما يفسر الحيرة العلمية التي ينفصل عنها هؤلاء اللسانيون الذين مخروا عباب هذه المسألة وخاضوا غمارها"[5] ولئن أخذ الباحث بأقوال علماء الأنثروبولوجيا أولئك فسيجد أن أمر اللغة يتطلب بحثا وسبرا.

مشكلة الدراسة:

ويمكن صياغة إشكالية الدراسة في السؤالين التاليين:

أي لغة تلك التي بدأت منذ الأزل؟

وهل وجدت مجتمعات بشرية لم تتواصل عبر اللغة؛ بل هل تواصلت عن طريق أصوات مفردة كأسراب الطيور والحيوانات وغيرها؟

وهل اللغة معطى جاهز أم ابتكار بشري؟ وما أهمية اللغة ودورها –أساسا– في بناء الحضارة وإقامة العمران؟

وهل اللغة هي مجرد التركيبات اللغوية والصيغ البلاغية والإنشاءات النحوية التي تختلف من لغة إلى أخرى؟ أم أن اللغة تحمل مقومات أصيلة وغايات بعيدة لدرجة أن يُسمَّى عرقٌ كامل باسم لغته أو تسمى باسمه حتى يذوب أحدُهما في الآخر؛ فتتشكل هُويَّته، هوية تندمج فيها عدة عناصر على رأسها اللُّغة.؟

فرضيات الدراسة:

تفترض الدراسة للبحث عن الإجابة المرضية على هذه الأسئلة، لمعالجة موضوع: تجليات اللغة في الحضارة والعمران، رصد جزئيات فرضيات حل الإشكالية في مضانها وهي:

- ✓ يمكن اعتبار فطرة الله التي فطر الناس عليها مهد اللغة ونشأتها.
- ✓ اعتبار اللغة أنها بدأت مع الإنسان المفكر.
- ✓ لعل اللغة هي رافعة لتحضر الإنسان ودافعه الأساس لإقامة العمران تعبيرا عن حاجاته.

أهمية الدراسة:

تنبع الأهمية العلمية للدراسة في أن البحث في القضايا الإنسانية المصيرية، المتعلقة بخلق الإنسان، ونشأته وتطوره، وتفاعله سلبا وإيجابا مع محيطه و أخيه الإنسان والقدرة على التواصل باللغة وغيرها، والتنوع الديني والثقافي واللغوي، والشكلي، واللوني، وإنتاج العلم والمعرفة، وابتكاره وسائل تكنولوجية، كلها مباحث مهمة من شأنها أن تقرب المسافات بين الأمم والشعوب، أو تعمل على تعميق الفرقة و الهوة بينها، بناء على توجيه البحث...فالإنسان العدل من منطلق التصور القرآني يتفاعل مع محيطه تفاعلا إيجابيا، يغيب فيه منطق الهيمنة والسيطرة والاستعلاء، ويحضر فيه المشترك الإنساني، المؤسس على علاقة التعاون و التآزر لتحقيق الرفاهية و العمران

منهجية الدراسة:

أ- وقد نهج الباحث في مقاربة هذه الدارسة المنهج التحليلي بتحديد مشكلة البحث الرئيسية، وجمع البيانات التي ترتبط وتتعلق بالدراسة، واستخراج النتائج المتوخاة وعرضها.

ب- حدود الدراسة: إن الحيز الذي يتسع لهذه الدراسة هو مجال سؤال اللغة الإنسانية في عالمنا المعاصر وقد قصر الباحث نظره على الدراسة النظرية وآثار الممارسة الفعلية في حياة الفرد والمجتمع.

هيكلة الدراسة:

تم تقسيم هذه الدراسة إلى:

تمهيد ومبحثين وخاتمة، ويتناول التمهيد: تحديد مفهوم اللغة، بينما يتطرق المبحث الأول: شخصية العرب في لغتهم. إلى والمبحث الثاني: اللغة أس الحضارة وساس العمران. والخاتمة شملت نتائج وتوصيات.

التمهيد: تحديد مفهوم اللغة.

يجدر البدء بأكثر الأسئلة بساطة: كيف نشأت اللغة؟

يقول الدكتور إبراهيم أنيس تحت عنوان "نشأة اللغة"[6]:

"لم يظفر بحث من البحوث اللغوية بقدر وفير من التأمل والتفكير مثل الذي ظفرت به نشأة اللغة، ومع هذا، فقد كانت النتيجة دائمًا سلبية، ولم يهتد الباحثون بعد كل ما بذلوه من جهد، إلى رأي يجمعون عليه أو يطمئنون إليه ففي كل العصور، ومنذ الحضارة الإنسانية القديمة، والعلماء لا ينقطعون عن البحث في نشأة الكلام وأصله ويفترضون في هذا، الفروض، حتى أوائل القرن العشرين، حين بدأ العلماء ينصرفون عن هذا الفرع من البحث ويرون أنه من مسائل ما وراء الطبيعة، وأن لا جدوى من الاستمرار فيه". و"اختلفت المناهج التي على أساسها يدرس البحث في أصل اللغة، وشروق النظام التواصلي الترميزي[7] في حياة الإنسان، وكان الاختلاف بينها شاسعاً، وليس عيباً أن تختلف المناهجُ للتوصل للحقائق العلمية – إذا لم يعد ثراء علميا – ولكن العيب أن تعوم نقطة البحث ويدخل محور النقاش في ضبابية تعيق الرؤية الموضوعية...بل الاستقراء الدقيق يفرز لنا أن النظريات المؤصلة، في هذا الصدد، تأرجحت إجابتُها بين ثلاث أسئلة:

- ✓ لماذا استعمل الإنسان اللغة؟
- ✓ كيف استعمل الإنسان اللغة؟
- ✓ كيف نشأت العُلْقة اللّغوية بين اللّفظ والمعنى؟"[8]

وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، ولم يتفقوا على مفهوم محدد لها؛ ويرجع سبب كثرة التعريفات وتعددها إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم، فانتقاء تعريف لها ليس بالعملية اليسيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. يقول ابن جِنّي عن اللغة: "أمّا حَدُّها فإنها أصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم"[9].

2. يقول ابن خلدون: "واعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصودة، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحهم".[10]

3. وإلى قريب من هذا ذهب الشريف الجرجاني فعرّف اللّغة بأنّها: "ما يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم".[11]

ولعل من أهم تعريفات اللّغة عند علماء اللّغة الغربيّين[12]:

1. تعريف اللّغة عند العالم اللّغوي فرديناند دي سوسير[13]:

"اللّغة هي نظام متناسق من العلامات المتمايزة فيما بينها، وهي – أي اللّغة – موجودة في أذهان أبناء الجماعة جميعهم، ويكتسبها الفرد اعتباطا وتتجلى من خلال النشاط الفعلي للفرد (المتكلم)".

2. تعريف اللّغة عند العالم اللّغوي ادوارد سابير[14]:"اللّغة على نحو محض طريقة بشريّة غير غريزيّة لنقل الأفكار والأحاسيس والرّغبات بواسطة نظام من الرّموز المكتسبة اعتباطا".

3. تعريف اللّغة عند العالم اللّغوي ليونارد بلومفيلد[15] : "اللّغة هي مجموعة من العادات الصوتيّة يكيّفها حافز البيئة فلا تتعدى كونها شكلا من أشكال الحافز ثم استجابة لذلك الحافز ".

4. تعريف اللّغة عند العالم اللّغوي جاكوبسون[16]: "اللّغة هي نظام تواصليّ اجتماعيّ مكوّن من رموز صوتيّة مكتسبة اعتباطا".

5. تعريف اللّغة عند العالم اللغوي ناعوم تشومسكي[17]:"اللّغة هي مجموعة غير محدودة من الجمل (لامتناهية)، كل جملة في تلك المجموعة محدودة في طولها ومركّبة من مجموعة محدودة من العناصر".

أو إنها كما يرى ناعوم تشومسكي في موضع آخر: "مبنية على أساس نظام من القوانين يقرّر تأويل جمل اللغة الكثيرة بغير حدود ".

هذهِ هي أهم تعريفاتِ اللُّغة عندَ علماءِ اللُّغةِ الغربيّين، وهي تكشفُ بوضوحٍ أنها تعريفات مختلفة باختلاف زوايا النَّظر إلى اللُّغة، لذلكَ كانتْ متكاملة لا متقاطعة.

ولغة الأمة هي مصداق هويتها ونُسغ[18] حياتها ووعاء ثقافتها ومجتلى حضارتها ومرآة نهضتها وحاضنة تراثها، وهي ذاكرة الأمة وتاريخها، ووجود الأمة مرتبط بوجود لغتها، والأمم التي انقرضت لغاتها زالت من الوجود، ولا بقاء لأمة يتخلى أهلها عن لغتها.

واللغة هبة تميز الكائن البشري على ما عداه من الكائنات، يتم اكتسابها التدريجي مع النمو الأول لخلايا الطفل في شهور عمره الأولى، من خلال لبن الأم وصوتها، ومن هنا جاء مصطلح "لغة الأم" الذي يُطلق دائمًا على اللغة التي تلقاها الإنسان بفطرته وغريزته، ولهذا فإن اللغة الأم تصبح جزءًا لا يتجزأ من شخصية صاحبها، وتظل حتى وإن زاحمتها لغات أخرى فيما بعد، هي أقرب اللغات للتعبير عن الخلجات الدقيقة على اختلاف ميادين الإرسال والاستقبال.

ومن المؤكد والمسلَّم به أن اللغة، وهي وعاء الفكر، تمثل مقياسًا خطيرًا من مقاييس الهوية والانتماء، وتظل بمثابة البوتقة التي تجمع تراث الأمة، وتستوعب مقومات فكرها وثقافاتها على توالى العصور وكر الدهور، فهي أداة التعبير ووسيلة التوصيل، وهي مادة التوثيق التي تضمن لفكر الأمة بقاءً وخلودًا.

ولا شك أن الاهتمام باللغة يظل مؤشرًا من مؤشرات الاهتمام بالأمة، حيث تظل اللغة معبرة عن الوعي الجماعي لها، مرتبطة-كل الارتباط-بهوية أبنائها، معبرة عن وحدة صفوفهم، ووحدة أهدافهم، ووحدة فكرهم في آنٍ واحد.

واللغة كما ورد في تقرير التنمية الإنسانية العربية عام 2003م[19]، أبرز سمات المجتمع الإنساني، وما من حضارة إنسانية إلا وصاحَبَها نهضة لغوية، وما من صراع بشري إلا ويُبطن في جوفه صراعًا لغويًّا، فاللغة هي المنظار الذي من خلاله يدرك الإنسان عالمه، وهي العامل الحاسم الذي يشكل هوية هذا الإنسان ويضفي على المجتمع طابعه الخاص.

فالهوية نتاج المعاني التي يشيدها الأفراد عبر اللغة، والطابع الخاص للمجتمع وليد تفاعل ما يسري في داخله من خطابات لغوية ترتهن بالمتغيرات التاريخية، وتعكس كل ما تزخر به المنظومة المجتمعية من أوجه الوفاق والشقاق.

المبحث الأول: شخصية العرب في لغتهم

"إن العربية هي التي طبعت شخصية العرب فيما قبل الإسلام بطوابع خاصة، بقيت فيهم، تظهر في التعبير عن أنفسهم والالتصاق ببيئتهم وكتابة إبداعهم إقامة الحضارات العديدة... وهذا ما يفسر أهمية الكلمة لديهم فلقد اشتهروا بها، وكان شعرهم الدوان الرئيس الذي برعوا فيه...ولذلك كان التفوق في الكلام وصناعته وقوله يساوي تفوق الأفراد وريادتهم...إن ما ذكره القرآن المجيد عن الممالك والشعوب التي أهلكت والتي بقيت، خير دليل على عراقة تاريخهم، لذلك توج سبحانه حياتهم بالذي يميزهم: فكان القرآن المجيد الذي في معناه العام يعني البناء في كل شيء، وكانت (اقرأ) خير بداية تأمر بهذا البناء...إن ما كشفه التاريخ عن زمن وجود العرب الأنباط ومجتمعهم وعبقرياتهم في الفن والبناء والعمران، يقف دليلا على أن هؤلاء الناس كانوا رواد بناء، ولا عجب أن نجد رجلا عالما مثل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينتسب إلى هؤلاء الأنباط: (إننا نبطٌ من كوثى15).[16]

هؤلاء الأنباط الذين أسسوا دولة واسعة مترامية الأطراف حذقوا فنون الهندسة والبناء في أشكاله المختلفة، وابتكروا طرقا جديدة في تشييد المدن، فكانت مدينة البتراء التي لا تزال بعض آثارها إلى اليوم في الأردن آية في الروعة والجمال والتنظيم المدني[17]كما برعوا في فنون الخط والكتابة، وقد عرف خطهم بالنبطي، نسبة إليهم، تأثرت به أنواع الخطوط – فيما بعد–لاسيما الخط المعروف بالكوفي الذي كتب به القرآن الكريم[18].

وفي التدقيق في تاريخ النبط العام[19]يتضح أنهم عرب(بل هم أقرب إلى قريش وإلى القبائل الحجازية التي أدركت الإسلام من العرب الذين يعرفون بالعرب الجندبين يشاركون قريشا في أكثر أسماء الأشخاص، كما يشاركونهم في عبادة اكثر الأصنام، وخط النبط قريب جدا من خط كتبة الوحي، وقد قلت: إن من العلماء من يرى أن قلمنا هذا مأخوذ من قلم نبطي)،[20] وهو دليل يثبت عروبة الأنباط الذين ينتسبون إلى "بنايوت" الابن الأكبر لإسماعيل جد العرب العدنانيين،[21] وهذه العروبة قدمت للتاريخ أنموذجا كاملا عن حياة العرب التي كان شعارها الكتابة والقلم والبناء المتجدد على غير صعيد.

وتحت عنوان "لغة الأمل والمعتقد"[22]، يورد الدكتور يوسف الحوراني الكثير من الحقائق التي تثبت قدرة اللغة العربية على بناء المجتمعات وتطويرها وتجددها، وإذ أتعقب هذه المسألة فلتقديم نماذج أخرى عن قوة العربية وقدرتها الكامنة على الخلق والإبداع والنهوض بالمجتمع...ولقد ارتبط الناس فيما بينهم باللغة التي حدّدت القواعد والأصول والقوانين في الحكم والشؤون العامة في أرض كنعان والرافدين لقد تساوى الناس في الأبجدية مع تساويهم في القدرة على النطق

والكلام، ولم تبق صور الأشياء وسيط تواصل بين الناس... أصبحت اللغة في نمو دائم بالمفردات الصالحة للتعميم واستعمال الشعوب الأخرى غير السامية لها..[23]

فثمة تنوع يظهر حيوية اللغة العربية يبرز إمكانياتها المختزنة التي تخطت العرب إلى بلاد الآخرين."[24]

من المفيد هنا أن يشار إلى ثلاث تجارب في التاريخ الحديث والمعاصر تم الاعتماد فيهم على اللغة لإنقاذ الهوية وحمايتها من التداعي، ويتجلى ذلك في اللغة العبرية واليابانية والكورية:

كانت اللغة العبرية من اللغات الميتة، فقد نجح المتحدثون بها في إحيائها من الموات ولملها من الشتات، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر قامت مجموعة من الشباب اليهود الأوربيين بحركة لإحياء اللغة العبرية، وكان من أشهرهم "أليعازر بن يهودا"[25] الذي دعا إلى إحياء اللغة العبرية من خلال جعلها لغة التخاطب في الحياة اليومية، ونادى بشعار (لا حياة لأمة بدون لغة) وفي سنة 1881م، هاجر إلى فلسطين مع زوجته وأسرته، وفرض اللغة العبرية لغة التخاطب والحديث بين أفراد أسرته، رغم أنها كانت لغة ميتة مثل اللغة اللاتينية، لا تستخدم إلا في الطقوس الدينية، ورغم سخرية الناس منه إلا أنه أسس رابطة للمتكلمين بالعبرية في فلسطين، وأصدر مجموعة من الصحف باللغة العبرية في القدس، وقام بإعداد معجم للغة العبرية أنجز منه تسعة مجلدات في حياته، وأكمله تلاميذه من بعده إلى ستة عشر مجلدًا.

واستجابة لجهد "أليعازر بن يهودا" تم إنشاء مدارس تدرس كل موادها باللغة العبرية بما فيها التاريخ والجغرافيا والرياضيات وغيرها، وأنشأوا مراكز عديدة لتعليم لغتهم للمهاجرين الجدد، وتلقينهم أنها اللغة المقدسة، وحرصوا على ذكر المواقع والأماكن باللغة العبرية، فالضفة الغربية هي السامراء، وغزة يهودا، والخليل حبرون، وبئر سبع هي بئر شيفع .. إلخ.

وانطلاقًا من دعوة "أليعازر بن يهودا" أصبحت العبرية الآن شديدة الحيوية كما أصبحت تشكل الهوية، وتدرس بها كل العلوم الحديثة في الكيمياء والفيزياء والصيدلة والطب والهندسة والعلوم الإنسانية، وتعقد بها المؤتمرات. وهكذا جسدت هذه المحاولة الناجحة تماسك الهوية من خلال لغة يتم إحياؤها أو اختراعها من مزيج لغات–على حد تعبير بعضهم –من العدم.

ومما يدلل على أهمية اللغة في توحيد أهلها، والنهوض بهم هذه الشعوب التي هزمت عسكريًّا، وتمسكت بلغتها؛ فاليابانيون مثلًا بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية خضعوا لشروط الأمريكيين في تغيير الدستور وحلّ الجيش ونزع

السلاح وغير ذلك، ولكنهم رفضوا التخلي عن لغتهم القومية التي تمسكوا بها، واستعملوها في معاهدهم وجامعاتهم ودخلوا بها معتركات الحياة العلمية والصناعية المتطورة، وكذلك كان الكوريون الذين وقعوا تحت احتلال اليابانيين الذين فرضوا عليهم لغتهم، ومنعوا الكوريين من التعليم بلغة بلادهم، ولكنهم بعد تخلصهم من الاحتلال-بعد هزيمة اليابانيين في الحرب العالمية الثانية- وجدوا قد اعتمدوا اللغة الكورية الفصيحة أساسًا للتنمية البشرية، وجعلوها في بلادهم لغة التعليم في مختلف مراحله، وتخصصاته المتنوعة، وكتبوا جميع اللافتات وأسماء المحلات بها فقط، وفي حال الاضطرار إلى كتابة أسماء أجنبية كما في لافتات السفارات والفنادق الكبرى جعلوها بالحروف الأجنبية الصغيرة تحت الحروف الكورية الكبيرة.

لا شك أن اللغة هي وعاء الفكر وصمام أمان الهوية وهي الماضي والحاضر والمستقبل، وتواجه اللغة العربية في الوقت الحاضر عدة آفات منها استعمال اللغة العامية، سواء في وسائل الإعلام، أو في لغة الباحثين والمذيعين والمحاضرين، والإعلانات التجارية، وفضاءات التواصل الاجتماعي، والتدريس بجميع مستوياته وتخصصاته وهي آفة مستعصية لا يسهل القضاء عليها، إلا بفتح من الله –تعالى – ونصر مبين.

المبحث الثاني: اللغة أس الحضارة وساس العمران

الكلام عن اللغة أخذ بعدا كلاميا في التراث الإسلامي، وكذلك في التراث الفلسفي اليوناني من قبل، فدار جدل طويل حول: هل هي توقيفية أم اصطلاحية، وبالنظر في واقع حياة الناس اليوم يرى الباحث الإنسان يبتكر لغته بشكل مستمر، فالقول بأن اللغة هي مجرد أداة للتواصل بين البشر، بطريقة ما وكيفية ما، وفي هذا المستوى لا يختلف الإنسان عن باقي العجماوات، لأنها تتصل عبر لغة خاصة بها، فالنمل –مثلا-يصدر نداء للتحذير ونداء لوجود الطعام كما وصف الحق -تبارك وتعالى- : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل آية 18]، وهناك لغة بين القردة عبر الصيحات، والذئاب عبر العواء، والضفادع عبر طريق النقيق...، فالنظر إلى اللغة يجب أن يكون بمزيد عناية واهتمام أكبر، فاللغة ليست مجرد أداة للتواصل فحسب، بل هي أداة للتفكير، فالإنسان يفكر من خلال اللغة، والكلمة – في الواقع- هي مخزون لمعان متشابكة

مع كلمات أخرى ومعان مختلفة، هي شبكة من العلاقات، فالإنسان يفكر من داخل اللغة على الرغم من أنه هو من ينتجها[26].

لأن "اللغة هي وسيلة التواصل بين البشر، وهي تمثل الظواهر الاجتماعية، لأنها تستغرق أكبر اهتمامات الإنسان وتستغل أغلب وقته، فهي تستغرق أكبر وقت من الزمن الذي يقضيه متكلما أو مستمعا، إلا إن اللغة كوسيلة لفظية لا تمثل سوى أربعين في المائة من حجم عملية التواصل بالمقارنة مع وسائل التواصل الأخرى غير اللفظية التي تشكل ستين في المائة... من خلال منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التواصل الذي أدرك أن التعبير عن الأغراض لا ينحصر في الأصوات، بل يتعدى ذلك إلى الإشارات والحركات والنصب والعقد، وما يتفاهم به الصم والبكم، وما يظهر على الإنسان من الانفعالات النفسية التي تظهر في حالات الغضب والحزن والفرح ونحو ذلك، وكذلك الأصوات التي يصدرها الإنسان كالنقر أو الضرب على بعض الآلات ونحوها للتنبيه أو التعليم، ومنه الأجراس واستعمال بعض أدوات التربية المحدثة لأصوات تعليمية..."[27]

" إن الكلام مؤثر جدا في إنتاج الفعل الإنساني، بل هو عين الفعل الإنساني ولا شيء من فعله إلا وهو حاصل بالكلام مباشرة، أو نتيجة، أو توجيها، أو تفاعلا وإنما بدأ التكليف الإلهي للإنسان كلمة، وآخره كلمة، منذ قال الله-تعالى-: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس آية 81]، إلى أن علمه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة آية 30]؛ إلى أن أنزل عليه كلامه: القرآن الكريم.

فالذي لا يعير للكلام -أي كلام- الخطورة التي يستحقها فهو جاهل بحقائق الدين وحقائق الوجود معا، وكثير من العقوبات في الإسلام والحدود والتعازير والآثام...إلخ، إنما ترتبت شرعا عن مجرد (كلام)يتكلم به الإنسان باطلا! بدءا بكلمة الكفر إلى كلمة القذف، إلى ما شابه ذلك من كلمات الغيبة والنميمة وعبارات السخرية والتنابز بالألقاب، وهلم جرا...

كما أن بدأ الخير كله كلمة. انطلاقا من كلمة الإخلاص: (لا إله إلا الله)، وما يتممها من (شهادة أن محمدا رسول الله)؛ إلى أبسط كلمات الإيمان والإحسان؛ كإفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإرشاد السائل...وما بين

هذا وذاك من كليات الكلام وجزئياته؛ فإنه جميعا يؤول – في النهاية–إلى بناء عمران الحياة الإنسانية، القائمة على العدل والسلام؛ لأن ذلك كله هو الذي ينتج فعل الخير بمعناه المطلق، ويحقق غاية الوجود البشري في الأرض. ومن هنا كانت أول نعمة امتن الله بها على الإنسان بعد نعمة الخلق أنه علمه البيان؛ ولذلك كان القرآن بين يديه– وهو كلام الله– الأداة الكلامية الفاعلة لإقامة الحياة في الأرض بالقسط والميزان، فتدبر قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٢ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٣ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٤ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٥ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٦ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمن آيات 1–7].

وأول الوزن وزن الكلام الذي هو حقيقة البيان، فإذا خسر؛ خسرت كل الموازين بعده! بدءا بموازين السياسة– بمعناها العام–وما تتضمنه من موازين الإدارة والاقتصاد؛ إلى موازين التجارة وسائر المصارفات المالية والاجتماعية، الجزئية والكلية... إلى كل طبائع العمران وتجليات الحضارة البشرية؛ إلى كل ما يمتد إليه ذلك من فقدان توازن الحياة الإنسانية والبيئية والكونية."[28]

خاتمة:

عندما ينظر الباحث في اللغات التي استخدمها البشر سواء الحية منها أم الميتة سيلحظ تقاربا بين بعضها واختلافا بين بعض الآخر، وفي حالة وجود تقارب بين لغتين أو أكثر في معجمهما أو في بناهما القواعدية "الصرفية والنحوية" فإن الافتراض الذي يرد على الذهن هو وجود رابط، أو أصل تاريخي مشترك يجمع بين هاتين اللغتين. ومن أمثلة ذلك التشابه البين بين عدد كبير من الكلمات الإنجليزية المستخدمة في الحياة اليومية مع نظيرتها الالمانية[29].

فاللغة مشترك إنساني حاضر في حياة الناس بالقوة والفعل، في كل جزئياتها الخاصة والعامة، في حالة الحركة والسكون تصحبهم في اليقظة والمنام وهذه حقيقة لا يمكن أن ينازع فيها أحد إلا مكابر، ولكنها لا تستحضر ضرورتها في التقريب بينهم وإعمالها بشكل فعال في مجالات المؤتلف والمختلف فيه من حيث ما يجب أن يكون من التعاون على بناء الحاضر باستحضار الأصل من ماضي البشرية واستشراف المستقبل القريب والبعيد، فإن أي محاولة بعيدة عن هذا الأصل الأصيل، والساس المتين، لأجل النهوض بالبناء الحضاري وإقامة العمران، وتحقيق الاستخلاف الذي هو غاية الاعمار والصلاح والإصلاح في الأرض، والتآلف والتسامح بين بني البشر، تبقى في نظر الباحث مجرد تجربة فاشلة أو حال سراب كاذب وصيحة في وادي لا صدى لها ونفخ في رماد لا جدوى فيه....

الهوامش:

1) الدكتور محيي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم دراسة فى النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، مكتبة ليان الطبعة: الاولى – 1998م، ص: 15

2) فريدريك فلهيلم فون همبولت (بالألمانية: Wilhelm von Humboldt) ولد في 22 يونيو 1767 وتوفي في 8 أبريل 1835. هو موظف حكومي، دبلوماسي، فيلسوف، مؤسس جامعة هامبولت ببرلين، صديق غوته وشيلر، يذكر غالبا على أنه لغوي.

3) اللغة والفكر والعالم دراسة فى النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، ص:15.

4) المصدر نفسه، ص:15-16.

5) اللغة والفكر والعالم دراسة فى النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، ص:15.

6) المصدر نفسه، ص:15-16.

7) التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين، ص:47-48.

8) اللغة والفكر والعالم دراسة فى النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، ص:15.

9) المصدر نفسه، ص:15-16.

10) التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين، ص:47-48.

11) الدكتور إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة 1976: ص 13.

12) إن التفكير في التواصل الإنساني اليوم هو تفكير في مسار إنتاجه، وهو أيضا تفكير في عناصره وفي العوامل المتحكمة فيه بشرية وتقنية، وهو تفكير في الاستراتيجيات الفاعلة في لعبة الرموز بما هي أس وعمق وشرط كل تواصل إنساني.

13) الدكتور علي عبد الله الفرج، كائن اللغة، الطبة الأولى 2015، دار أطياف، القطيف، المملكة العربية السعودية، ص:33-34.

14) ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، طبعة عالم الكتب، الجزء 1، ص:33.

15)عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة: كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق عبد السلام الشدادي ، خزانة ابن خلدون بين الفنون والعلوم و الأدب الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ج3، ص:237.

16) العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني(ت816هـ)، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، د-ت، القاهرة-مصر، ص:161.

17) حيدر غضبان محسن الجبوري، موقع http://www.uobabylon.edu.iq، تعريف اللغة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، المرحلة 3، عام 2011/15/6

18) فرديناند دي سوسور (توفي في 22 فبراير 1913) من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، واتجه بفكره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، وكانت اللغات تدرس دراسة تاريخية، وكان السبب في هذا التحول في دراسة اللغة هو اكتشاف اللغة السنسكريتية.

19) دوارد سابير (مات فى 4 فبراير سنة 1939.)كان عالم في الإثنيات وأستاذ جامعي وعالم انسان ولغوي اجتماعي من أمريكا.

20) ليونارد بلومفيلد (بالإنجليزية: Leonard Bloomfield) (1887م-1949م)، أحد علماء اللغة الأمريكيين وأحد أهم الرائدين في مجال اللغويات البنيوية في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

21) رومان أوسيبوفيتش جاكوبسون هو عالم لغوي، وناقد أدبي روسي (1896م-1982م) من رواد المدرسة الشكلية الروسية. وقد كان أحد أهم علماء اللغة في القرن العشرين وذلك لجهوده الرائدة في تطوير التحليل التركيبي للغة والشعر والفن.

22) يوصف تشومسكي أيضاً بأنه "أب علم اللسانيات الحديث" كذلك يُعد شخصية رئيسية في الفلسفة التحليلية. أثر عمله على مجالات عديدة كعلوم الحاسب والرياضيات وعلم النفس. كذلك يعود إليه تأسيس نظرية النحو التوليدي، والتي كثيراً ما تُعتبر

أهم إسهام في مجال اللسانيات النظرية في القرن العشرين. وأيضًا كذلك فضل تأسيس ما أصبح يُعرف بـ "تراتب تشومسكي" ونظرية النحو الكلي.

23) نسغ: "سَائِلٌ يَكُونُ فِي الْخَلِيَّةِ، كَمَا يَجْرِي فِي أَنْسَاجِ النَّبَاتِ لِتَغْذِيَتِهِ"، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817 هـ)، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، الطبعةالثامنة،1426هـ -2005م، ص: 789.

24) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام2003م، نحو إقامة مجتمع المعرفة، المطبعة الوطنية، عمان- المملكة الأردنية الهاشمية.